# الأخلاق ومرجعيّتها في الإسلام
# - الحياة الزَّوجِيَّة والأُسَرِيَّة أنموذجًا-

حسن أحمد الهادي *

**المُلخّص**

يوجد العديد من الأصول والمباني الفكريَّة والتَّربويَّة والاجتِماعِيَّة في الدين الإسلاميّ الَّتي يمكن الاستناد إليها في قضيَّة حاكميَّة الأخلاق ومرجعيّتها في الحياة البشريَّة بشكلٍ عام، وهو ما تناولناه في المبحث الأول من هذا البحث، من خلال الأصول الآتية: الإنسان مختار ذو غاية، ربّانيَّة المنهج التَّربويّ، تكامل قوى النَّفس، تكامل العلاقة بين الأخلاق والقانون، مبدأ النّظائريَّة في الإنسانِيَّة، مبدأ التآلف الاجتماعيّ.

لقد خصّصنا المبحث الثاني للبحث في حاكميَّة الأخلاق في خصوص الحياة الزَّوجِيَّة والأُسَرِيَّة بشكلٍ خاصٍّ؛ وذلك من خلال دراسة العناصر الأخلاقِيَّة والتَّربويَّة والاجتِماعِيَّة للبناء والحياة الزَّوجِيَّة والأُسَرِيَّة، بالاستناد إلى النُّصُوص الدّينيَّة والقواعد التَّربويَّة المُستقاة من المنهج التَّربويّ الإسلاميّ. وقد تناولنا فيه العناصر الآتية: البناء الأُسَريّ النّاجح كيان عاطفيّ أخلاقيّ، الزواج في الإسلام سُنَّة أخلاقيَّة واجتماعيَّة، الزواج وكمال الدين والعبادة، الزواج وفضيلة العفَّة

* رئيس تحرير مجلّة الحياة الطّيبة التّخصُّصيَّة/لبنان.

الأخلاقِيَّة، الواجبات القانونيَّة والأخلاقِيَّة للزوج تجاه الزَّوجة، الواجبات القانونيَّة والأخلاقِيَّة للزوجة تجاه الزوج، ترابط الأخلاق والعدالة في الحياة الزَّوجِيَّة والأُسَرِيَّة.

في أيّ الطريقين سلكنا من المفترض أن نصل إلى حاكميَّة الأخلاق ودورها الرَّئيس في الحياة الزَّوجِيَّة والبناءَين: الأُسَريّ والاجتماعيّ، وكونها الأصل في العلاقات الإنسانِيَّة في كل مستويات تلك العلاقات وفروعها وتفاصيلها.

## مقدّمة

إنّ الغاية من علم الأخلاق؛ هي بلوغ الإنسان إلى كماله اللَّائق به في الدّارين، والوصول إلى السَّعادة الدَّائمة الأبديَّة؛ عبر التّحلّي بأسباب السَّعادة والكمال، والتّخلُّص من موجبات الشّقاوة السَّرمديَّة بالتَّخلِّي عن عوامل الشقاء والفساد. وتلك الغاية هي الَّتِي من أجلها أرسل الله- تعالى- الرُّسُل والأنبياء عليهم السلام؛ ففي الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّما بُعِثتُ لأتمّ مكارم الأخلاق»[1]. وإنّ موضوع علم الأخلاق هو النَّفس الإنسانِيَّة من حيث تحلّيها بالفضائل وتخلّيها عن الرّذائل، ولا شكّ في أنّ معرفة الإنسان حاجة أوّليَّة وضروريَّة لكلّ باحث في الأخلاق؛ إذ لا يمكن البحث في الأخلاق والتربية الأخلاقِيَّة، إلّا بالتعرُّف إلى مُتعلّقها وموضوعها؛ أي الطبيعة البشريَّة وقواها الدّاخليَّة، واستعداداتها الفطريَّة، وحاجاتها، ونواقصها، وكمالاتها، وأبعادها وجوانبها، وما جهّزت به من أدوات، ... وفي هذا السِّياق، وردت بعض النُّصُوص الدّينيَّة الَّتِي تحثُّ على ضرورة معرفة النّفس. كما جاء عن الإمام علي عليه السلام: «من عرف نفسه جاهدها»[2].

## المبحث الأول: حاكميَّة الأخلاق ومرجعيّتها في الحياة البشريَّة

نتناول بالبحث في هذا القسم مجموعة من الأصول والمباني العامَّة الَّتِي تساعد في تأسيس قضيَّة حاكميَّة الأخلاق؛ إذ هي بمثابة القواعد الفكريَّة البنائيَّة الَّتِي يُستند إليها في البحوث والدِّراسات الأخلاقِيَّة والاجتِماعِيَّة المتعلّقة بالإنسان

1- الطبرسي، الحسن بن الفضل: مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، 1392هـ.ق/ 1972م، ص5.

2- الواسطي، عيون المواعظ، ص453.

ومكانتـه ووظائفـه فـي الحيـاة الدُّنيـا، والبرامـج التَّربويَّـة والتَّعليميَّـة ونقتصـر التزامًـا بالضَّوابـط البحثيَّـة علـى جوانـب مـن تلـك الأصـول والمبانـي، وهـي:

**الأصل الأوّل: الإنسان مختار ذو غاية**

إنّ الإنسـان كائـن هـادف؛ أي أنّ أفعـال الإنسـان الاختياريَّـة ليسـت جزافيَّـة وعبثيَّـة[1]؛ وإنَّمـا هـي مُعلّلـة بالأغـراض والغايـات والأهـداف، حيـث تصـدر منـه الأفعـال مـن أجـل تحقيـق نتيجـة مقصـودة لـه. يقـول العلّامـة الحُلّـي: «كلّ فاعـل بالقصـد والإرادة فإنـه إنّمـا يفعـل لغـرض مـا وغايـة مـا، وإلّا لـكان عابثًـا»[2]، فلـو سـألت أيّ إنسـان: لمـاذا تقوم بهـذا العمـل؟ سـيأتيك الجـواب: لأجـل كـذا.

فدائمًـا هنـاك وراء أيّ فعـل اختيـاريّ يصـدر مـن الإنسـان هـدف وغايـة ينشـدها مـن وراء ذلـك الفعـل، ويريـد تحقيقهـا بوسـاطة الفعـل. ولـو خلـت حيـاة الإنسـان مـن الهـدف سـيعيش حالـة مـن الاضطـراب الوجـوديّ والقلـق، والشـعور بالعدميَّـة، والتشـاؤم؛ لأنّ الحيـاة تكـون حينهـا خاليـة مـن المعنـى، فالهدفيَّـة هـي الَّتِـي تمنـح الحيـاة معنـى.

وقـد أكّـد الشـيخ مصبـاح اليـزدي ﷺ هـذه القضيَّـة فـي كتابيـه معـارف القـرآن، والأخـلاق في القـرآن، حيـث اعتقـد أنّ اختيـار الإنسـان هـو المبـدأ الأوّل مـن المبـادئ الموضوعيَّـة فـي النّظـام الأخلاقـيّ فـي الإسـلام؛ بـل إنّ جميـع النُّظُـم الأخلاقِيَّـة إمّـا تُصـرّح بكـون الإنسـان مختـارًا كمبـدأ موضوعـيّ، وإمّـا تسـلّم بـه ضمنًـا، وإن لـم يلتفـت إليـه أتبـاع ذلـك النّظـام، والسـبب فـي ذلـك هـو أنّ الإنسـان إذا كان مُلزمًـا فـي أعمالـه، وافتقـد إرادتـه فـي تقريـر مصيـره فـإنّ الأمـر والنّهـي المتوجّهيـن إليـه سـوف يفقـدان محتواهمـا، وهـو: ينبغـي أن تفعـل كـذا، أو لا ينبغـي، ...

وللالتفـات إلـى هـذا المبـدأ أهمِّيَّـة تربويَّـة بالغـة؛ وذلـك لأنّ ظهـور لـون مـن ألـوان الجبـر فـي الإنسـان واعتقـاده بعـدم الاختيـار فـي أعمالـه، ورضوخـه للمؤثّـرات الخارجيَّـة سـوف يثبـط عزيمتـه؛ بـل ويجـرّده مـن الشـعور بالمسـؤوليَّة. وعـادةً مـا يجـد هـؤلاء العديـد مـن المُسـوّغات والتأويـلات لإهمالهـم وتقاعسـهم ولا مسـؤوليتهم، وقـد يسـتند بعـض المؤمنيـن فـي تسـويغ ذلـك إلـى القضـاء والقـدر، أو العرفـان والفلسـفة... ونحوهـا ممّـا يُسـاق فـي هـذا المجـال... ومـن الواضـح أنّ لتلـك العقائـد المنحرفـة، والأفـكار الخاطئـة تأثيرهـا البالـغ علـى السُّـلوك الإنسـانيّ. وذلـك لأنّ الإنسـان المختـار ينتخـب

1- معنى العبثيَّة: خُلوّ الفعل من الغاية ووقوعه لا لغرض .

2- ابن المطهر الحلي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص198.

غاية ثمّ يباشر أفعاله الاختياريَّة بغية الوصول إليها، ويطلق على الغاية المنشودة العلّة الغائيَّة الَّتي تُذكر فقط في فعل الفاعل المدرك الَّذي يؤدّيه عن علم وإرادة، وتدفعه نحو إنجاز العمل...[1]

**الأصل الثاني: ربَّانيَّة المنهج التّربويّ وشموليته وواقعيّته**

«إنّ الانسان، وهو نوع وجوديّ، له غاية وجوديَّة لا ينالها إلَّا بالاجتماع المدنيّ. كما يشهد تجهيز وجوده بما لا يستغني به عن سائر أمثاله، كالذكورة والأنوثة، والعواطف والإحساسات، وكثرة الحوائج وتراكمها. وإنّ تحقّق هذا الاجتماع وانعقاد المجتمع الإنسانيّ، يحوج أفراد المجتمع إلى أحكام وقوانين ينتظم باحترامها والعمل بها شتات أمورهم، ويرتفع بها اختلافاتهم الضَّروريَّة، ويقف بها كلّ منهم في موقفه الَّذي ينبغي له، ويحوز بها سعادته وكماله الوجوديّ»[2].

ما يعطي القيمة الحقيقيَّة لتلك القوانين والأنظمة، انتسابها إلى الرّبّ الَّذي خلق الكون والبشر، ولقد تضافرت الرِّوايات في ربّانيَّة ذلك المنهج في الأصول والفروع والقيم، نذكر منها ما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث قال: «والله ما نقول بأهوائنا، ولا نقول برأينا، ولا نقول إلَّا ما قال ربّنا»[3].

من الجدير ذكره أنَّ الإمام الصادق عليه السلام يوضح سلسلة الأحاديث ومصادرها الَّتي يرويها الإمام المعصوم عليه السلام من خلال إرجاعها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلى الله تعالى، حيث يقول: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحُسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ»[4].

من الآثار المباشرة لربَّانيَّة المنهج أنَّها تزرع في نفس الانسان حالة التقديس للمنهج التربويّ؛ لأنّه يعلم بأنّه موضوع من قبل المطلق العليم، أو من قبل من شهد القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله بعصمتهم، وهذا التقديس يدفع بالإنسان إلى العمل

1- اليزدي، محمد تقي مصباح، الأخلاق في القرآن الكريم، دار التعارف، بيروت، ج1، 2004م-1425هـ. ص 17 - 19. (بتصرُّف)

2- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج12، ص200.

3- المجلسي، بحار الأنوار: 2 / 173.

4- الكليني، الكافي: 1 / 53 .

الـدؤوب لتطبيـق قواعـد المنهـج على نفسـه، وأُسـرته، ومجتمعـه، والارتبـاط بـكلّ مـا يريـده ربّـه، فيرتبـط بالأصـول التَّربويَّـة القرآنيَّـة، وبالعبـادات ومـا فيهـا مـن قيـم روحيَّـة والالتقـاء بالصّالحيـن. وهـذا مـا يحقّـق الاسـتقامة فـي السُّـلوك؛ فيطمئـن ويستشـعر الحمايـة والأمـن والشـفاء مـن الأمـراض السُّـلوكيَّة والاجتِماعِيَّـة.

يمتـاز منهـج أهـل البيـت عليهم السلام التّربـويّ بالشـمول، فهـو يراعـي الإنسـان فـي جميـع مُقوّماتـه الفطريَّـة والتَّكوينيَّـة، وينظـر إليـه مـن جميـع جوانبـه، فهـو مخلـوق مـزدوج الطّبيعـة روح وعقـل وغرائـز، وجسـد مُتعـدّد الجـوارح، وهـو موضـوع للإنسـان ككلّ فـلا انفصـال بيـن حاجـات الجسـد وحاجـات الـروح، ويدعـو إلـى إشـباع حاجـات الإنسـان ؛ كـي يتقّبـل مـا يلقـى إليـه مـن قواعـد، وأُسُـس تربويَّـة، وتوجيهيَّـة، وإرشاديَّة.

يواكـب هـذا المنهـج حركـة الإنسـان فـي جميـع مراحلهـا؛ ابتـداءً باختيـار شـريك الحيـاة المناسـب، مـرورًا بمرحلـة الاقتـران، وانعقـاد الجنيـن، ومراحـل الطفولـة، ويضـع لـكلّ مرحلـة تعاليـم وتوجيهـات منسـجمة مـع عمـر الطفـل الزمنـيّ والعقليّ، ومـع حاجاته المادِّيَّـة والرُّوحيَّـة، ثـم تأتـي التكاليـف حينمـا يصـل الطفـل إلـى مرحلـة مـن النُّضـج الجسـديّ والعقليّ؛ لتكـون هـي الموجّهـة لـه فـي حركتـه الواقعيَّـة فـي الحيـاة.

ويتدخـل المنهـج فـي صناعـة البيئـة التربويَّـة، فيدعـو إلـى إصـلاح المحيـط التربـويّ المُتمثّـل بالأسـرة والأصدقـاء، ومراعـاة الحقـوق والواجبـات، وتجنّـب المشـاكل والخلافـات، وإشـباع حاجـات الطفـل إلـى الحُـبّ، والحنـان، والتكريـم، وإشـعاره بذاتـه.

يتَّسـم هـذا المنهـج بالواقعيَّـة والاتّـزان، وتبـرز واقعيّتـه، كونـه قـد راعـى واقـع الانسـان ناظـرًا إلـى جميـع جوانبـه، داعيًـا إلـى إشـباعها بتـوازن؛ بحيـث لا يطغـى جانـب علـى جانـب، ولا ناحيـة علـى ناحيـة، وقـد وضـع لـكلّ جانـب مقوّماتـه وحـدوده الواقعيَّـة، فـلا تقييـد مطبـق ولا إطـلاق العنـان دون تنـاهٍ. ومـن واقعيَّـة هـذا المنهـج تركيـزه علـى دور القيـم المعنويَّـة والأخلاقِيَّـة فـي التَّربيـة؛ ومنهـا: الايمـان باللـه تعالـى، وبالعقـاب والثـواب، وأنّـه ثابـت فـي أصولـه وأُسُسـه، مُتطـوّر فـي أسـاليبه ووسـائله، كمـا روي عـن أميـر المؤمنيـن عليه السلام قولـه: «لا تقسـروا أولادكـم علـى آدابكـم، فإنّهـم مخلوقـون لزمـانٍ غيـر زمانكـم»[1].

1- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، . 20 / 267.

**الأصل الثالث: تكامل قوى النفس**

للنَّفس قوّتان: قوّة نظريَّة وقوّة عمليَّة؛ وكمال القوّة النَّظريَّة بالعلوم والمعارف، والإحاطة بحقائق الوجود، ومراتب الموجودات غير المتناهية، والتَّرقّي منها إلى معرفة المطلوب الحقيقيّ؛ لأنّ غايتها هي الوصول إلى التّوحيد الحقيقيّ، واطمئنان القلب بنور الإيمان؛ وذلك الكمال هو الحكمة النّظريَّة. وأمّا كمال القوّة العمليَّة؛ فهو بالتّخلّي عن الصّفات الرذيلة، والتحلّي بالأخلاق الحميدة، ثمّ التّرقّي إلى تطهير السَّريرة، وتخليتها عمّا سوى الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ وهذا ما يسمّى بالحكمة العمليَّة.

لا ينبغي للإنسان أن يفصل بين القوّتين؛ بأنْ يسعى إلى كمال إحداهما دون الأخرى؛ لأنّهما مرتبطتان ولا فصل بينهما، فالعلم، وإنْ كان يوجب كمالًا في النّفس، لكنّه يزول مع ترك العمل، وكذلك العمل من دون علم يؤدّي بالإنسان إلى الوقوع في المهالك. لذا، فإنّ الإقبال على الطّاعة والإعراض عن المعصية يوجب جلاءً ونورًا للقلب، يستعدّ به لإفاضة علم يقينيّ؛ بل إنّ كمال القوّة النَّظريَّة يفتح طريقًا أمام كمال القوّة العمليَّة، وكمال القوّة العمليَّة يوجب استعدادًا لمرتبة أخرى من كمال القوّة النّظريَّة. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1]. وقال تعالى ـ أيضًا ـ: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[2]. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإنْ أجابه وإلّا ارتحل عنه»[3]. وعنه عليه السلام: «لا يقبل الله عملًا إلّا بمعرفة، ولا معرفة إلّا بعمل، فمن عرف دلّته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، ألا إنّ الإيمان بعضه من بعض».[4] فإذا كان القلب صافيًا وطاهرًا، ظهر له كثير من المزايا والملكات، وصار محلًّا مناسبًا للفيوضات الرّحمانيَّة. وما لا شكّ فيه أنّ الرَّحمة الإلهيَّة مبذولة للجميع، لكنّها موقوفة على شروط في محلّ نزولها، أهمّها أن تُصقل مرآة القلب وتُصفّيه

1- [الآية 69، العنكبوت/29].

2- [ الآية 14، المُطفّفين/83].

3- الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، 1363هـ.ش، ج1، كتاب العقل والجهل، باب استعمال العلم، ح2، ص44.

4- المصدر نفسه، باب استعمال العلم، ح2، ص44.

من الخبائث، وإلّا فإنّ تراكم الصَّدأ الحاصل من المعاصي والخبائث يمنع الحقيقة من أن تتجلّى للقلب. فالأنوار العلميَّة لا تُحجب عن القلوب لبخلٍ من جهة المنعم ـ تعالى شأنه عن ذلك ـ، بل إنّ الاحتجاب يكون من جهة القلب نفسه لتراكم الكدورات والخبائث، واشتغاله بما يمنع من ذلك.

**الأصل الرابع: تكامل العلاقة بين الأخلاق والقانون**

إنّ الدّين من أهمّ المنابع الَّتي يستقي منها علم الأخلاق أحكامه، وإنّ مكارم الأخلاق هي الهدف الأسمى للدّين، فقد يتساءل الإنسان عن الفرق بين الحكم الشّرعيّ المبحوث عنه في علم الفقه، وبين الحكم الأخلاقيّ المبحوث عنه في علم الأخلاق، مع أنّ كلًّا منهما حكمٌ وقانون إلهيّ يتعلّق بأفعال الإنسان وسلوكه؛ وذلك من أجل سعادته ونجاته من الشقاء. ويتركّز السؤال إذا علمنا أنّ الأحكام الشّرعيَّة الَّتي هي نتائج علم الفقه جميعها تابعة للمصالح والمفاسد؛ بمعنى أنّ الواجب لم يصبح واجبًا لولا المصلحة والخير الَّذي يترتّب على فعله، والمحرّم لم يحرّم إلّا لأنّ فيه مفسدة وشرّ، والمباح لم تُشرّع إباحته إلاّ لأنّه لا مفسدة في فعله أو في تركه؛ فالحكم الشرعيّ ـ إذن ـ يدور مدار الخير والشرّ، وهذا المدار هو نفسه الَّذي تتمحور حوله أحكام الأخلاق وقوانينه.

الجواب: إنّ الحكم الشّرعيّ في جوهره حكمٌ أخلاقيّ، لا يختلف إلّا بالاصطلاح وبعض الحسابات، لكنّ هذا لا يعني الاستغناء عن علم الأخلاق؛ لأنّ الفقيه ينظر إلى مستوى الإلزام في الحكم الشّرعيّ، ويحدّده على أساس الثواب والعقاب، فيفتي بأنّ هذا واجب وذلك مُستحبّ، وذلك مباح، وربّما مكروه أو محرّم؛ فتلك الأحكام التكليفيَّة مستويات من الإلزام. وأمّا الأحكام الأخلاقِيَّة، فإنّها تعمل على تحقيق حالة الالتزام؛ وذلك بخلق الملكات في النّفس، أو صقلها، وتقويتها، وتلك الملكات تجعل الفرد عنصرًا مُلتزمًا بأحكام الدين من دون عناء، ومن دون بذل كبير جهد، ولعلّه من دون حاجة إلى قانونٍ للعقوبات.

فإذا أدرك الإنسان أنّ له نفسًا لا تؤول إلى الموت والفناء، وأنّها يمكن أن ترتقي سُلّم الكمالات، أو تهبط في حضيض الشّقاوة والرذائل، وإذا عرف أنّ ذلك لا يحصل إلّا بالعمل الدّؤوب، ومواصلة السُّلوك في ما يلائمها، واجتناب ما يفسدها ويهلكها؛ لم يجد بدًّا عندئذٍ من أن يُشمّر عن ساعد الجدّ والاجتهاد، ويتخلّى عن شهوات البدن، ولذّات المادّة؛ لتحصيل السّعادة الدائمة؛ لأنّ البدن مصيره إلى

الفناء، وأمّا النّفس فنصيبها البقاء. فإنْ اكتسب الإنسان كمالًا في الدنيا خلد في النّعيم، وإنْ جنى على نفسه وبالًا وعرّضها للفساد، كان مصيره الخلود في الشقاء. وبذلك، يظهر أنّ الأحكام الفقهيَّة أحكامٌ أخلاقيَّة ولكن بلحاظ آخر.

وخلاصة القول: إنّ الأنظمة القانونيَّة المنطلقة من الدِّين ترتبط بالأخلاق بأوثق رباط؛ وذلك لما للأخلاق من موقع مُهمّ في منظومة القِيم الدِّينيَّة. ويتأكّد ذلك الارتباط عندما نلاحظ الإسلام على وجه التّحديد، فإنّه يهدف من خلال نظامه القانونيّ إلى تربية الإنسان وإيصاله إلى مرحلة التكاملَيْن: المعنويّ، والروحيّ. وذينك التّكاملَان هما الهدف المنشود من الأخلاق الإسلاميَّة. وعليه، لا يشاهد المراقب الدّقيق لبِنْيَة النّظام التشريعيّ الإسلاميّ أيّ لون من ألوان التّعارض بين القوانين الإسلاميَّة، وبين الأخلاق وذلك امتياز للقانون الإسلاميّ يدفع المسلمين إلى امتثال أحكامه بدافع الميل والرَّغبة.

**الأصل الخامس: مبدأ النّظائريَّة في الإنسانيَّة**

أكّد القرآن الكريم مبدأ وحدة النّوع الإنسانيّ من حيث الخلقة، فالنّاس متساوون في البشريَّة؛ إذ كلّ النّاس من آدم وحواء عليهما السلام؛ ما يعني أنّهم إخوة في الإنسانيَّة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1]. وفي هذا السّياق، نلاحظ أنّ الإمام عليه السلام قد قسّم النّاس إلى صنفين على أساس الدين والإنسانيَّة؛ إذ قال: «فإنّهم [أي النّاس] صنفان: إمّا أخٌ لك في الدّين، وإمّا نظيرٌ لك في الخلق»[2] وعليه، ينبغي أن تقوم التربية على الآتي:

- إنّ الاختلاف بين البشر سُنّة طبيعيَّة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[3].
- إنّ ذلك الاختلاف يعطي لوحة الوجود الاجتماعيّ جماليَّةً خاصّة تُعَدُّ من آيات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[4].
- إنّ تلك الاختلافات التّكوينيَّة ليست ـ في حدّ ذاتها ـ معيارًا للتفاضل، ولا

1- [الآية 1، النّساء/4].

2- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ص427.

3- [الآية 118، هود/11].

4- [الآية 22، الرُّوم/30].

تشكّل الفروق بين البشر في اللّون، والعرق، واللُّغة، والجنسيَّة، إلخ، ... مصدرًا للاختياريَّة الإلهيَّة، فلا فضل لأحد على أحد بأصل الخلقة.

- إنّ لذلك الاختلاف والتّنوُّع في المجتمع البشريّ وظيفة اجتماعيَّة مُهمّة، وهي التَّعارف[1]، كما علّلت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[2].

نعم، يبقى التّفاضل بين النّاس في ضوء مبدأ أخلاقيّ تظلّله التقوى، فمعيار تفاضل إنسان على إنسان وجماعة على جماعة هو في مدى القُرْب من الله تعالى. عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، قال: «خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيّام التشريق خطبة الوداع، فقال: يا أيّها النّاس، إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلّا بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»[3].

**الأصل السَّادس: مبدأ التَّآلف الاجتماعيّ**

التآلف الاجتماعيّ من أهمّ الأصول الاجتِماعِيَّة في حياة الإنسان المسلم، ومفردة «ألف» في اللُّغة العربيَّة تدلّ على انضمام شيء إلى شيء[4]، والألفة من الائتلاف، وهو الالتئام والاجتماع، وتألَّف القوم: اجتمعوا وتحابّوا. والألفة الأنس والمحبّة[5]، والأنس سكون القلب، وهو ضدّ الوحشة. وقد ورد عن النّبيّ ﷺ: «خير المؤمنين من كان مألفة للمؤمنين، ولا خير في مَن لا يَألف ولا يُؤلف»[6]. وعن الإمام علي عليه السلام: «المؤمن مألوف، ولا خير في مَنْ لَا يَأْلَفُ ولَا يُؤْلَف»[7]. ويقع مقابل

1- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج18، ص326.

2- [الآية 13، الحُجرات/49].

3- عبد العظيم المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ضبط أحاديثه وعلّق عليه: مصطفى محمد عماره، دار الفكر، بيروت، 1988م/1408هـ ج3، ص613.

4- ابن زكريا، معجم مقاييس اللُّغة، ج1، ص131.

5- أحمد بن محمد المقري الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، دار الفكر، بيروت، لا.ت، ج1، ص18.

6- الطوسيّ، الأمالي، ص462.

7- الكليني، الكافي، ج2، ص102.

التّآلف الاجتماعيّ، التفرُّق والانقسام والشرذمة، والنّفور من النّاس، والوحشة منهم، والتكبّر عليهم، والتّباغض والتّحاسد... وتلك الملكات من إغواءات الشيطان. يقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1]. وهو ما يؤكّده ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «واعلم أن الإلْفَ من اللّه، والفِرْكَ[2] من الشيطان»[3].

## المبحث الثاني: حاكميَّة الأخلاق في الحياة الزَّوجيَّة والأُسَريَّة

بالاستناد إلى الأصول العامَّة المذكورة في المبحث الأول، ذكر القرآن الكريم مجموعةً كبيرةً ومُتنوّعة من الأُسُس الَّتي ترتبط بتربية الإنسان والأسرة والمجتمع، وتوجيهه نحو قيم الفضيلة، والأخلاق الحسنة، ... إلَّا أنّ بعض تلك العناصر والأُسُس عام ويخاطب الإنسان بوصفه فردًا، ويهدف إلى صقل شخصيّته، وتربيتها على العلاقة الإيجابيَّة والجيّدة مع الله والنفس والناس، وبعضها يرتبط بشكلٍ مباشر بأُسُس الكيان الأُسَريّ ومرتكزاته، ويهدف إلى بنائه بناءً صحيحًا، وحفظه من كل الأخطار والمنزلقات الَّتي طالما كانت وما زالت تطيح أُسُس الأسر وأركانها، والمجتمعات عبر التاريخ وإلى يومنا الحاضر.

### أولًا: البناءُ الأُسَريّ النَّاجح كيان عاطفيّ أخلاقيّ

تكشف النُّصُوص الإسلاميَّة عامّة والقرآن الكريم خاصّة عن رؤية واضحة إلى كلّ من الرّجل والمرأة، مفادها اشتراكهما في الإنسانيَّة وخصائصها ولوازمها، حيث إنّ الإنسان إنسان بروحه لا بجسده، وفي عالم الروح لا أنوثة ولا ذكورة؛ بل هما من عالم الجسد. وتتجلّى تلك الرؤية المُوحّدة بين الرجل والمرأة في موارد عدَّة في النُّصُوص الدِّينيَّة منها أنّ الرجل والمرأة متساويان من ناحية الخلق لجهة العلاقة بالمبدأ والهدف الَّذي أُريد لكلّ منهما، ومن ناحية الماهيَّة والحقيقة، ومن ناحية الاستعدادات والقابليّات الذاتيَّة للتّكامل. ويتجلّى هذا الخطاب الخاص، والمؤثّر، في تصوير القرآن للرَّابطة الَّتي تجمع بين الرجل والمرأة، وينتج منها الزواج والأسرة، حيث عَدَّ القرآن الكريم أنَّ تلك الرابطة يجب أن تقوم على أمتن العلاقات والقيم

1- [الآية 103، آل عمران/3].

2- الفرك: البغضة.

3- الكليني، الكافي، ج3، ص481.

الإنسانيَّة؛ من السَّكينة، والودّ، والحُبّ، والرَّحمة، والاحترام، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. فالسَّكينة الأُسَريَّة الَّتي جعلها الله هدفًا للنّشاط الإنسانيّ داخلها هي سكينة تقوم على الحفاظ على القيم الَّتي جاءتنا وحيًا، وفي الآية الكريمة كلمتان حاكمتان: الخلق والجعل، فشاءت إرادة الله أن يخلق لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها؛ أي نُحقّق سويًّا السَّكينة الَّتي يأمرنا الله بجعلها هدفًا لكل نشاطنا الإنسانيّ، ثمّ علّمنا المولى أنّ الطريق لتحقيق تلك السَّكينة يتمثَّل في أمرين، هما: المودَّة والرّحمة في التّعاملات بين الزوجين، فالجعل في هذه الآية هو مشيئة إلهيَّة، أو قل هو سُنّة من سُنَن الله تعالى، وإنّ الطريق إلى السّكينة يحتاج إلى عملٍ إنسانيٍّ في اتِّجاهين: المودَّة والرَّحمة، فالجعل في هذه الآية هو مشيئة إلهيَّة وعملٌ إنسانيّ، والتّواد هو أن أجعل نشاطي وعلاقتي مع الآخر محاطان بالحُبّ القاصد وجه الله، والتّواد في حدود القدرة، وقد يكون أحد الزوجين أقدر من الآخر، وهنا تدخل الرّحمة؛ فالأمر ليس توادًّا فحسب؛ وإنّما يرحم أحدنا الآخر في ما لم يقدر عليه[2].

المودَّة هي الباعثة على الارتباط في بداية الأمر، ولكن في النّهاية وحين يضعف أحد الزوجين تأخذ الرحمة مكان المودَّة[3]، والمودّة كأنّها الحُبّ الظاهر أثره في مقام العمل، فنسبة المودَّة إلى الحُبّ كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الَّذي هو نوع تأثّر نفسانيّ عن العظمة والكبرياء والرّحمة نوع تأثُّر نفسانيّ عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال وحاجته إلى رفع نقيصته، يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه. ومن أجل موارد المودّة والرحمة(في) المجتمع المنزلي فإنَّ الزوجين يتلازمان بالمودّة والرحمة وهما معًا وخاصّة الزوجة؛ يرحمان الصغار من الأولاد، ويريان ضعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيويَّة فيقومان بواجب العمل في حفظهم، وحراستهم، وتغذيتهم، وكسوتهم، وإيوائهم، وتربيتهم، ولولا تلك الرّحمة لانقطع النّسل، ولم يعش النّوع قط[4].

---

1- [الآية 21، الرُّوم/30].

2- يراجع تفسير [الآية 21، الرُّوم/30].

3- الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، ج12، ص496.

4- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج16، ص 166.

إنّه من لُطف الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن خصّ تلك الخليَّة الاجتِماعِيَّة الأولى الَّتِي تعني أساس المجتمع، بميزة المودّة والمحبّة والرّحمة، فالرجل يعقد على المرأة الأجنبيَّة عنه نسبًا وبلدًا، وعنصرًا وقومًا، فلا يتمّ العقد إلّا ويأتلف القلبان وتتّحد الروحان، وكأنّهما جسد واحد. تلك الألفة الَّتِي يحتاج بناؤها إلى مدّة طويلة بين صديقين حميمين، وبين زميلين في عمل، تمرُّ على علاقتهما سنوات، فما هي إلّا مدّة بسيطة وربما لحظات، وإذا بالقلب يرتبط بالقلب، وتنشد النّفس إلى النّفس، ويشعر كُلٌّ منهما أنّ كيانه صار ممتدًّا، امتدادًا لا يفرق؛ وإنما يؤول إلى الائتلاف والالتقاء. هذا صنع من الله لا نعرف سرّه، وكيف يكون إلّا أنّنا نعرف أنّ من حكمته أنّ تلك الخليَّة الأولى تحتاج إلى رعايةٍ إلهيَّةٍ فوق العادة من أجل أن تنبني بناءً مُركّزًا، لا تتهدّده الخلافات الصغيرة لتهدمه بسرعة؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

بالخلاصة يمكن القول: إنّ الزواج كما هو طريق لتهدئة فوران الشّهوة، هو أيضًا الطريق المُحقّق للطُّمأنينة والسَّعادة. والسّعادة عبارة عن الإحساس بالارتياح من دون أيّ مُعكّر لصفو العيش من التطلُّع إلى المستقبل بكل أمل وحماس؛ بحيث الابتسامة والثقة المتبادلة تُعمّر الديار وتُضفي على الواقع المُعتمد. وقد ورد في تعريف السّعادة: إنّها الاستفادة القُصوى من المرضيّات الممكنة، والابتعاد قدر الإمكان من المُنغّصات والآلام.

**ثانيًا: الزواج في الإسلام سُنّة أخلاقيَّة واجتماعيَّة**

للزواج ـ كما للرّوابط الاجتِماعِيَّة الأخرى ـ أُسُس وغايات عدّة تنعكس على الزوجين والأسرة إيجابًا عند مراعاتهما للحقوق والواجبات، والتزامهما بالقيم الَّتِي يجب أن تُنظّم الحياة الزَّوجيَّة والأُسَرِيَّة، وذلك على قاعدة أنّ كل مسلم مسؤول في بيئته الاجتِماعِيَّة، يمارس دوره الاجتماعيّ من موقعه، حيث رُوي عن النبي ﷺ: «من أصبح لا يهتمُّ بأُمور المسلمين فليس بمسلم»[2]، والاهتمام بأمور المسلمين يشمل الأفراد كما يشمل الأُسَر والمجتمعات، ويمكن لمن يتتبّع الآيات والروايات أن يستنتج أنّ الزواج في الإسلام نظام مُتكاملٌ شرّعه الله تعالى لتتكامل حياة الإنسان، وترتقي في أبعادها الدنيويَّة والمعنويَّة والأخرويَّة. ويمكن إيضاح ذلك

1- عيسى أحمد قاسم، الأسرة في الإسلام، ص5 - 9، (بتصرّف).

2- الكليني، الكافي، ج 2، ص163.

بالإشارة إلى بعض القيم والأهداف والآثار، إلى جانب منظومة الحقوق والواجبات، والَّتِي تُعبّر عن غايات نظام الزواج في الإسلام، طبعًا بما ينسجم مع غرض هذا البحث.

تثبت بعض آيات خلق الإنسان بما لا يقبل الشك ذلك الانجذاب النّفسيّ الموجود في سريرة الرجل والمرأة؛ بحيث يتقبّل كلٌّ منهما عناء هجرة أقربائه؛ ليعيش مع شخص آخر، يُوفّر له الطُّمأنينة والرّاحة النَّفسيَّة، وإنّ الرجل والمرأة يُقرّران الزواج حينما يطمئنّان إلى بعضهما، ويستعذبان الحياة المشتركة ضمن ميثاق فطريٍّ متين أسمى من مجرّد إشباع الرغبة الجنسيَّة، فثقة الرجل والمرأة بعضهما ببعض أعمق من كلّ ثقة في أيّ علاقة إنسانيَّة أخرى؛ ما يجعل من الزواج ميثاقًا متينًا[1]. وهذا ما يؤكّده العلّامة الطباطبائي ﷺ بقوله: «النكاح والازدواج من السُّنن الاجتِماعِيَّة الَّتِي لم تزل دائرةً في المجتمعات الإنسانِيَّة أيُّ مجتمع كان على تاريخ هذا النوع إلى هذا اليوم، وهو في نفسه دليل على كونه سُنّة فطريَّة. على أنّ أقوى الدليل على ذلك كون الذكر والأنثى مجهزين بحسب البِنْيَة الجسمانيَّة بوسائل التّناسل والتّوالد.. والطائفتان (الذكر والأنثى) في ابتغاء ذلك شَرْع سواء، وإن زيدت الأنثى بجهاز الإرضاع والعواطف الفطريَّة الملائمة لتربية الأولاد. ثم إنّ هناك غرائز إنسانيَّة تنعطف إلى محبّة الأولاد وتَقْبَل قضاء الطبيعة بكون الإنسان باقيًا ببقاء نسله، وتذعن بكون المرأة سَكنًا للرجل وبالعكس، وتحترم أصل الوراثة بعد احترامها لأصل الملك والاختصاص، وتحترم لزوم تأسيس البيت...»[2]. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3]، وهو ما نفهمه من الرّوايات الَّتِي اعتقدت أنّ بيت الزواج من الأمور المُحبّبة والعزيزة إلى الله تعالى. ورد عن النبي ﷺ: «ما بُني في الإسلام بناء أحبّ إلى الله عزّ وجلّ وأعزّ من التزويج»[4]،

1- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج 4، ص 460.

2- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج5، ص313.

3- [الآية 189، الأعراف/7].

4- المجلسي، بحار الأنوار، ج100، ص222.

وعنه ﷺ: «من أحبّ أن يلقى الله طاهرًا ومطهرًا فليلقه بزوج ....»[1]. وما ذلك إلّا لأنّ العلاقات الأُسَرِيَّة القائمة على ركني الحقوق والواجبات من جهة، والقيم الأخلاقِيَّة من جهةٍ أُخرى، لها دورٌ كبير في توثيق أواصر الأسرة وتماسكها، وتحقيق سعادتها واستقرارها، وإيجاد البيئة النَّفسيَّة والعاطفيَّة الصِّحِّيَّة داخل الأسرة؛ ما يمنح جميع أفراد الأسرة القدرة على التَّكيُّف الجدّيّ مع أنفسهم، ومع أسرهم، ومع المجتمع. ومن هذا المنطلق، فإنّ الحياة الزَّوجِيَّة والأسرة بحاجة إلى منهج تربويّ يُنظّم مسيرتها من خلال نظام الحقوق والواجبات، ويُوزّع الأدوار والوظائف... للمحافظة على تماسكها المؤثّر في الانطلاقة التَّربويَّة الفاعلة في المجتمع.

**ثالثًا: الزواج وكمال الدين والعبادة**

يتميّز الدِّين الإسلاميّ بنظرته المعنويَّة إلى الآثار المُترتّبة على الزواج، وهو ما أشارت إليه مجموعة من الرّوايات منها ما رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: من تزوّج أحرز نصف دينه. وفي خبر آخر: فليتَّقِ الله في النّصف الآخر، أو الباقي[2]. وعن الإمام الباقر ﷺ قال: «الركعتان يُصلّيهما متزوّج أفضل من سبعين ركعة يُصلّيهما أعزب»[3]، و«مَنْ تزوّج أحرز نصف دينه»[4] و«يفتح أبواب السّماء بالرحمة في أربع مواضع: ... وعند النكاح»[5]. وتُعدُّ كثير من السُّلوكيّات الأُسَرِيَّة ـ تحت الإطار الإسلاميّ ـ أمورًا عباديَّة وحتّى إنّ بعضًا منها ضمن ظروف خاصة أعلى شأنًا من بعض العبادات. وإنّ من شأن ذلك التقديس لأمر الزواج أن يشجّع الفرد بأن ينظر إلى الواجبات الزَّوجِيَّة والسُّلوك الأُسَريّ بعنوانها فرائض دينيَّة ملقاة على عاتقه. وهكذا، يُصبح تنظيم الأمور المعيشيَّة الدنيويَّة في الأسرة طريقًا إلى الكمال المعنويّ والأخرويّ للإنسان.

نجد أيضًا أنّ الإسلام يوصي المُتزوّجين أن يقرنوا سلوكهم بالصّلوات والدعاء

---

1- البروجردي، جامع أحاديث الشيعة، ج20، ص10.

2- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، كتاب النكاح باب 101 فضل التزويج ج 3 ص 236 ح 3 و4، ووسائل الشيعة، كتاب النكاح باب 1 من أبواب مقدّمات النكاح ح11 و12.

3- الصّدوق، من لا يحضره الفقيه كتاب النكاح باب 102 فضل التزويج ج 3 ص 236 ح 1.

4- المصدر نفسه، ص 5.

5- المجلسي، بحار الأنوار، ج 100، ص 221.

والتـوكُّل على الله[1]؛ لأنّ الـزواج مقـرون بالأمـور المعنويَّـة، وغايـة ذلـك تعبيـد الطريـق لنمـوّ الإنسـان وتكامله، وتأتي تلـك الرؤيـة مقابـل النظـرة الَّتِي تـرى أنّ النُّمـوّ المعنـويّ يتحقّـق بعيـدًا مـن الـزواج.

أحـد النتائـج الإيجابيَّـة والمُهمّـة للزواج هي نموّ شـخصيتَيْ: الرجل والمـرأة وكمالهما المعنـويّ. فعلـى الصَّعيـد المعنـويّ، يُحـرز الفـرد نصـف دينـه كمـا تُشـير الروايـات[2]، ويكـون أجـر أعمالـه العباديَّـة أضعـاف أجـر الفـرد الأعـزب[3]. كذلـك إنّ الـزواج يصـون عفّـة المـرء وأخلاقـه: «هـو أغـضّ للبصـر، وأعـفّ للفـرج، وأكـفّ وأشـرف»، و«مـا للشـيطان سـلاح أبلـغ فـي الصّالحيـن مـن النسـاء إلّا المتزوّجـون أولئـك المُطهّـرون المُبـرؤون»، و«مـن أحـبّ أن يلقـي اللـه طاهـرًا مُطهّـرًا فليتعفّـف بزوجـه»[4]؛ وتعبيـر اللِّبـاس فـي القـرآن الكريـم يُشـير إلـى هـذا الأمـر، قـال تعالـى: ﴿هُـنَّ لِبَـاسٌ لَّكُـمْ وَأَنتُـمْ لِبَـاسٌ لَّهُـنَّ﴾[5]؛ لأنّـه يعنـي وقايـة الزوجيـن مـن التلـوُّث بالمفاسـد الأخلاقِيَّـة[6]. وهـذا مـا يسـتدعي نمـوّ شـخصيَّة الإنسـان معنويًّـا ؛ بينمـا يُلاحـظ أنّ الفرد الأعـزب يظلّ دائمًـا ـ جـرّاء الضُّغوطـات الجنسـيَّة ـ مُهـدّدًا بشـبح الانحـراف الأخلاقـيّ الَّـذِي يجلب معـه الشـعور بالذنـب، واسـتبطان الدُّونيَّـة لنفـس الإنسـان وكرامتـه.

**رابعًا: الزواج وفضيلة العفَّة الأخلاقِيَّة**

تقـع [العفـة] فـي النّقطـة المقابلـة لـ «شـهوة البطـن والفـرج»، وتُعَـدُّ من أهـمِّ الفضائل الإنسـانِيَّة والأخلاقِيَّـة على السّـواء. وقـد اعتقـد اللُّغويّـون أنّ العفـة هـي حصـول حالـة للنّفـس تمتنـع بهـا مـن غلبـة الشّـهوة، وتحفظهـا مـن الميـول والشّـهوات النّفسـانيَّة. وقـد ذكـر علمـاء الأخـلاق فـي تعريـف العفـة أنّهـا الحـدّ الوسـط بيـن الشـهوة والخمـود. والعفـاف صفـة يُحبّهـا اللـه، كمـا صـرّح رسـول اللـه ﷺ بقولـه: «إنّ اللـه يُحـبُّ الحَيِّـيَ المُتعفّـف، ويبغـض البـذي السّـائل الملحـف»[7]. وكان رسـول اللـه ﷺ يدعو: «اللَّهـمّ إنّي

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 14، ص 79.

2- المصدر نفسه، ص 5.

3- المصدر نفسه، ص 7-6.

4- النوري، مستدرك الوسائل، ج 14، ص 154 - 159 - 150.

5- [الآية 187، البقرة/ 2].

6- الطباطبائي، تفسير الميزان ج 2، ص 44.

7- الطوسي، الأمالي، 39، 43.

أسألك الهُدى، والتُّقى، والعفاف، والغنى»[1]. ووصف العفاف بأنّه من أفضل العبادة كما عن الإمام علي عليه السلام: «أفضل العبادة العفاف»[2]. ورفعت الروايات منزلة العفيف إلى منزلة الملائكة، عن الإمام علي عليه السلام: «ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجرًا ممّن قدر فعف، لكاد العفيف أن يكون ملكًا من الملائكة»[3].

الملاحظ بأنّ الروايات تُركّز كثيرًا على عفة البطن والفرج، وذلك لأنّها الخُلق الَّذِي يحفظ كرامة الإنسان ويصونه عن الانحراف، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحبّ العفاف إلى الله تعالى عفاف البطن والفرج»[4]. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «ما عُبد الله بشيء أفضل من عفّة بطن وفرج»[5]. وعن الإمام علي عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيرًا أعف بطنه وفرجه»[6].

للعفاف شعب وآثار عدّة، منها: ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمّا العفاف، فيتشعّب منه الرضا، والاستكانة، والحظ، والراحة، والتفقّد، والخشوع، والتذكُّر، والتفكُّر، والجود، والسّخاء، فهذا ما يتشعّب للعاقل بعفافه رضى بالله وبقسمه»[7].

وأمَّا من ناحية الآثار فللعفّة آثار عدّة، منها:

- القناعة: القناعة أحد أهمّ أصول العفاف، عن الإمام علي (عليه السَّلام): «على قدر العفة تكون القناعة»[8].
- الصبر على الشهوات: وعنه عليه السلام: «الصبر عن الشهوة عفة، وعن الغضب نجدة»[9]، وعنه عليه السلام: «العفة تضعف الشهوة»[10].

---

1- الألباني، صحيح الترمذي، 3489.

2- الكليني، أصول الكافي، ج2، 79، 3.

3- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الحكمة 474.

4- ورام بن أبي فراس المالكي، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر، 2، 30.

5- الكليني، أصول الكافي، ج2، 79، 1.

6- الآمدي، غرر الحكم، 4114.

7- ابن شعبة الحراني، تحف العقول، 17.

8- الآمدي، غرر الحكم، 6179.

9- الآمدي، غرر الحكم، 7646.

10- المصدر نفسه، 5104.

وعليه، فإنّ العفة هي برنامج حياة وخلق وأدب، يجب أن يتحلّى بها من أراد السُّموّ والمروءة، ومن أهمّ أسباب تماسك المجتمعات والأسر هو وجود العفة قويَّة راسخة في ذلك المجتمع. وإن من أسباب تفكُّك المجتمعات والأُسَر، هو ضياع العفة وضعفها، وكثرة الابتذال، والتّحلُّل من القيود والضّوابط الدينيَّة، بلا فرق بين الفقهيّ، والأخلاقيّ، والاجتماعيّ، وغيرهم...

في هذا السّياق وبالاستناد إلى الروايات فقد عُدَّ الزواج خير سبيل للوقاية من تلك السُّلوكيَّات والممارسات المُتنافية مع العفّة الفرديَّة والاجتِماعِيَّة، فقد ورد في الأثر: «من أحبّ أن يلقى الله ... طاهرًا مُطهّرًا فليلقه بزوجة»[1]. لذا؛ يُعدُّ الإسلام الزواج ضرورةً حيويَّةً للّذين يتمتّعون برغباتٍ جنسيَّةٍ جامحة: «تزوّج وإلّا فأنت من المذنبين»[2]؛ ويُلقى لائمة عدم الزواج على الفرد نفسه، وعلى الذين قصّروا في تيسير أمر زواجه[3]. وقد ورد في أحاديث الأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّ عدم زواج شخصين يملكان المواصفات اللّازمة، ومنها: التديّن والتحلّي بالأخلاق، والتقارب سيؤدّي إلى الإثم واستشراء الفساد في الأرض: «إذا جاءكم من ترضون خُلقه، ودينه، فزوّجوه، وإلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض، وفساد كبير»[4]. يُعدُّ التّناسل، وتربية الجيل الصالح من الغايات المُهمّة للزواج في الإسلام ومناسب وصحّيّ ضمن مرحلةٍ زمنيَّةٍ مُحدّدة ولا سيَّما بالنّسبة إلى المرأة؛ لأنّ الحمل في مرحلةٍ عُمريَّة مُتأخّرة قد يُعرّضها ويُعرّض جنينها لمخاطر عدّة، منها: تشوُّه الجنين.

**خامسًا: الواجبات القانونيَّة والأخلاقِيَّة للزوج تجاه الزوجة:**

للزوجة في الإسلام مجموعة من الحقوق الَّتي ينبغي للزوج مراعاتها؛ بعضها له بُعد فقهيّ قانونيّ، وبعضها الآخر ـ وهو الأكثر ـ من الأمور المعنويَّة والأخلاقِيَّة، منها :

1. حُسن المعاشرة: الزواجُ بداية مرحلة جديدة من المعاشرة تنتهي في ظلالها حياة العزوبيَّة لكلّ من الرجل والمرأة، ويبدأ عهد جديد من حياتهما عنوانه الرئيس المودَّة والرّحمة بينهما. وعلى أثر ذلك يحصل نوع من التقارب بين أفكار

1- النوري، مستدرك الوسائل، باب 1.

2- المصدر نفسه، باب 2.

3- الكليني، الكافي، ج 5، ص 347.

4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 14، ص 52.

الزوجين ورؤاهما، كذلك الأمر بالنسبة إلى توجّهاتهما والخطط المُستقبليَّة لحياتهما المشتركة. وقد حثّ الإسلام على معاشرة المرأة بالمعروف؛ وذلك من خلال عدد كبير من المفاهيم الأخلاقِيَّة والتّربية السُّلوكيَّة، ومن هذه المفاهيم:

أ. العِشرة الحسنة: إنّ الحياة الزَّوجِيَّة السَّليمة هي الحياة الَّتي يعيش فيها الزوجان بتناغم وتفاهم كبيرين، والعنوان الأبرز لهما هو: ألّا يسيء أحدهما إلى الآخر؛ بل يحرصان على أن يكون الإحسان هو الهدف الحاكم على سير الحياة الزَّوجِيَّة بينهما، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]. وروي عن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي»[2]. وروي عن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في وصيّته لمحمد بن الحنفيَّة: «إنَّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فدارها على كلِّ حال، وأحسن الصّحبة لها، فيصفو عيشك»[3]. وهذا يعني أن يتعامل معها الزوج كما يُتعامل مع الورود والرّياحين الَّتي ينبعث أريجها في كُلّ الأرجاء والأنحاء، ويولّد ارتياحًا وبهجة في النّفس.

ب. حُسْن الصّحبة لها: من أهمّ حقوق الزوجة على زوجها إكرامها، والرّفق بها، وإحاطتها بالرّحمة، والمؤانسة. عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «وأمّا حقُّ رعيّتك بملك النّكاح، فأن تعلم أنّ الله جعلها سكنًا ومُستراحًا وأُنسًا وواقية، وكذلك كلّ واحد منكما يجب أن يحمد الله على صاحبه، ويعلم أنّ ذلك نعمة منه عليه، ووجب أن يحسن صحبة نعمة الله ويكرمها ويرفق بها، وإن كان حقّك عليها أغلظ، وطاعتك بها ألزم في ما أحبّت وكرهت ما لم تكن معصية، فإنّ لها حقّ الرحمة، والمؤانسة، وموضع السّكون إليها قضاء اللّذّة الَّتي لا بدّ من قضائها»[4].

ج. عدم استخدام القسوة: نهى الرسول الأكرم ﷺ عن استخدام القسوة مع المرأة، وجعل من حقّ الزوجة عدم ضربها والصّياح في وجهها، ففي جوابه عن سؤال خولة بنت الأسود حول حقّ المرأة، قال: «حقّكِ عليه أن يُطعمك ممّا يأكل،

---

1- [الآية 19، النّساء/4].

2- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج3، ص281.

3- الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص 218.

4- المصدر نفسه، ص188.

ويكسوكِ ممّا يلبس، ولا يلطم، ولا يصيح في وجهك»[1]. وقال ﷺ: «خير الرجال من أُمّتي الّذين لا يتطاولون على أهليهم، ويحنّون عليهم، ولا يظلمونهم»[2].

ورد عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ألا أخبركم بشرّ رجالكم ؟ فقلنا: بلى، فقال: إنّ من شرّ رجالكم: البهّات، البخيل، الفاحش، الآكل وحده، المانع رفده، الضارب أهله، ...»[3].

وعن الرسول ﷺ: «حقّ المرأة على زوجها: أن يسدّ جوعتها، وأن يستر عورتها، ولا يقبّح لها وجهًا، فإذا فعل ذلك فقد أدّى والله حقّها»[4].

د. الصّبر على إساءتها: قد يُبتلى الزوج نتيجة ظروف صحّيَّة، أو نفسيَّة، أو اجتماعيَّة، أو غيرها، تطرأ على الزوجة، بسوء خلقها وتعكّر مزاجها. وهنا ليس من الصّحيح أن يتّخذ الزوج نفس الموقف السّلبيّ، بل لا بُدّ له من مساعدتها والعمل على تهيئة البيئة المناسبة لمعالجتها والعودة إلى حياتها الطَّبيعيَّة. ولذا؛ حثّت الروايات الزوج على الصّبر على إساءة الزوجة قولًا كانت أم فعلًا، روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «من احتمل من امرأته ولو كلمة واحدة، أعتق الله رقبته من النار، وأوجب له الجنّة»[5]. وحثّ رسول الله ﷺ الزوج على الصبر أيضًا على سوء خلق الزوجة، فقال: «من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله بكلّ مرّة يصبر عليها من الثواب مثلما أعطى أيوب على بلائه»[6].

والقاعدة العامّة هنا كما روي عن الرسول ﷺ: «أوصاني جبرئيل بالمرأة حتّى ظننت أنّه لا ينبغي طلاقها إلّا من فاحشةٍ مُبيّنة»[7].

---

1- الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص218.

2- المصدر نفسه، ص 217-216.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، كتاب النكاح باب7 من مُقدّمات النكاح، ح2.

4- ابن فهد الحلّي، عدّة الدّاعي، ص91، وقريب منه في: المتقي الهندي، كنز العمّال، ح44940.

5- الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص 216.

6- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 14، ص 116.

7- المصدر نفسه، كتاب النكاح باب 88 من مُقدّمات النكاح ح 4.

**سادسًا: الواجبات القانونيّة والأخلاقيّة للزّوجة تجاه الزّوج:**

أمَّا حقوق الزوج الَّتِي يجب على الزوجة مراعاتها، فمنها:

1. إطاعة الزوجة لزوجها: تجب طاعة الزوج في غير معصية، ويتحقّق ذلك بسماع كلمته، وإطاعة أمره في شؤون الجماع والاستمتاع والقرار في البيت، وتفرُّغها لشؤونه وللأولاد، وعدم الصّوم تطوُّعًا إلّا بإذنه، والسّتر في اللّباس، وعدم إدخال أحد إلى بيته إلّا بإذنه، وأن لا تخرج من بيتها إلّا بإذنه، وغير ذلك من الأمور الَّتِي يجب أن تطيعه فيها، وقد رُوي عن رسول الله ﷺ: «إنّ من القِسم المصلح للمرء أن يكون له المرأة؛ إذا نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وإذا غَابَ عنها حَفِظَتْهُ، وإذا أَمَرَها أَطاعَتْهُ»[1]. وقد تقدّم أنّ من الصّفات الحسنة للمرأة أن تكون مطيعة لزوجها. وذكر ﷺ طاعة الزوج في سياق ذكره لسائر العبادات والطّاعات الَّتِي توجب دخول الجنّة، حيث قال: «إذا صلّت المرأة خَمسها، وصامت شهرها، وأحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، فلتدخل من أيّ أبواب الجنّة شاءت»[2].

2. إظهار الأناقة والجمال: من أجل أن تتركّز مشاعر الرغبة الغريزيَّة، والميول الجنسيَّة، ضمن الإطار الزوجيّ، فتتحقّق العفة، ويتوثّق الارتباط والانشداد، يوجّه الإسلام كلًّا من الطّرفين للاهتمام بأناقته وجماله أمام الطّرف الآخر، ليملأ عينه، وليستقطب أحاسيسه، فلا ينجذب لما وراء ذلك.

تخطئ بعض الزوجات اللّواتي قد تغفلن جانب الاهتمام بإظهار زينتهنّ ومفاتنهنّ أمام أزواجهنّ، انشغالًا منهنّ بخدمة البيت، وتربية الأولاد، أو لشعورهنّ بعمق الحُبّ بينهما؛ بحيث لا داعي للأناقة والزينة، وغالبًا ما تخصّص ثياب الزينة، وأساليب الأناقة، عند ذهابها إلى حفلة، أو زيارة، لكن هذا التفكير خاطئ، فالزوج تصادفه مختلف الأشكال والمناظر، وخاصّة عبر وسائل الإعلام، الَّتِي تستغلّ أنوثة المرأة وتتاجر بها، فينبغي للزوجة أن تعمل للاستيلاء على مشاعر زوجها، وأن تملأ عينيه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الزوج، عليه أن يهتمّ بأناقته وجماله، ومنظره ونظافته أمام زوجه، فهي إنسان تمتلك مشاعر وأحاسيس، وتصادفها مختلف الأشكال والمناظر، فيجب أن ترى في زوجها ما يملأ عينها ويجتذب أحاسيسها.

لهذا، كان من الضّروريّ جدًّا أن يراعي الزوجان زينتهما ومظهرهما، وأن يظهرا

---

1- الكليني، الكافي، ج 5، ص 327.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 20، ص 159.

بالمظهر اللّائق أحدهما أمام الآخر. فهناك العديد من النّسوة اللّواتي انحرفن عن جادّة العفّة؛ بسبب إهمال أزواجهنّ لهذا الجانب الحسّاس من الحياة. فعن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنَّ التهيئة ممّا يزيد من عفّة النساء، ولقد ترك النساء العفّة بترك أزواجهنّ التهيئة»[1]. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «لا ينبغي للمرأة أن تُعطِّل نفسها، ولو أن تعلّق في عنقها قلادة»[2].

رُوِي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: لامرأة سألته عن حقوق الزوج على زوجته.. قال: «على المرأة أن تتطيّب بأطيب طيبها، وتلبس أحسن ثيابها، وتتزيّن بأحسن زينتها، وتعرض نفسها عليه غدوة وعشيَّة»[3]. وعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «لا غنى بالزوجة فيما بينها وبين زوجها الموافق لها عن ثلاث خصال، وهنّ: صيانة نفسها عن كلّ دنس حتّى يطمئنّ قلبه إلى الثقة بها في حال المحبوب والمكروه، وحياطته ليكون ذلك عاطفًا عليها عند زلّة تكون منها، وإظهار العشق له بالخلابة، والهيئة الحسنة لها في عينه»[4].

3. حسن التبعُّل: حسن التبعُّل للزوج من المُقوّمات المُهمّة في نجاح الحياة الزَّوجِيَّة، والمقصود به إطاعة الزوج، وحسن التّعامل والعشرة معه، ويُعدُّ حسن التبعّل للزوج نوعًا من أنواع الجهاد، فإذا كان جهاد الأعداء واجب على الرجال فإنّ جهاد المرأة حُسْن تبعّلها لزوجها، وهكذا يجب أن تكون المرأة المسلمة المعاصرة، أن تُحسن التَّبعُّل لزوجها، وأن تحسن معاشرته، وأن تطيعه في ما يرضي الله تعالى.

لقد أكّدت الروايات مراعاة حقّ الزوج، واتّباع الأساليب المُشوّقة في إدامة أواصر الحُبّ والوئام، وخلق أجواء الانسجام والمعاشرة الحسنة داخل الأسرة. ولذا؛ ورد عن الإمام الباقر عليه السلام «جهاد المرأة حُسْن التبعّل»[5]. وفي هذا السّياق، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «لا تؤدّي المرأة حقّ الله عزَّ وجلَّ حتّى تؤدّي حقّ

1- الكليني، الكافي، ج5، ص567.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج3، ص333.

3- الكليني، الكافي، ج 5، ص 508.

4- المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 237.

5- الكليني، الكافي، ج 5، ص 9.

زوجها»[1]. وإذا أردنا البحث العمليّ عن مصاديق حُسْن التبعُّل نجد أنّها كثيرة، نذكر منها بعض ما ورد في الروايات:

أ. عدم فعل ما يسخط زوجها: لا ينبغي للزوجة أن تعمل ما يسخط زوجها ويؤلمه في ما يتعلّق بالحقوق العائدة إليه، كإدخال بيته من يكرهه، أو سوء خُلقها معه، أو إسماعه الكلام القاسي وغير اللّائق. رُوِي عن رسول الله ﷺ: «أيّما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل منها صرفًا، ولا عدلًا، ولا حسنة من عملها حتّى ترضيه»[2].

ب. استقبال الزوج وإرضائه: وحثّ ﷺ المرأة على إصلاح شؤون البيت، واستقبال الزوج بأحسن استقبال فقال: «حقّ الرجل على المرأة إنارة السّراج، وإصلاح الطعام، وأن تستقبله عند باب بيتها فترحّب به، وأن تُقدّم إليه الطشت والمنديل...»[3].

ج. الصبر على أذى الزوج: ينبغي للزوجة أن تصبر على أذى الزوج، فلا تقابل الأذى بالأذى والإساءة بالإساءة، قال الإمام الباقر عليه السلام: «وجهاد المرأة أن تصبر على ما ترى من أذى زوجها وغيرته»[4].

د. العفة: يجب أن تكون المرأة عفيفة في نفسها، ومحافظة على شرفها، وعفّة المرأة هي العمود الفقريّ للحياة الزَّوجِيَّة، وحتّى لو كان الزوج غير مستقيم فإنّه لا يرغب أن تكون زوجته غير عفيفة. وإنّ العفّة من الزوجة رباط مُقَدّس بينها وبين زوجها تسيّج به حياتها الزَّوجِيَّة السّعيدة، وتنشر عليها شآبيب الرّحمة، والعطف، والحنان. وعدم العفة مصرع من مصارع الحياة الزَّوجِيَّة. عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما عُبدَ اللهَ بشيء أفضل من عفّة بطنٍ وفرج»[5].

هـ. الإعانة وجلب الرضا: عن رسول الله ﷺ: «ويل لامرأة أغضبت زوجها، وطوبى لامرأة رضي عنها زوجها»[6]. وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ثلاثة لا يرفع

1- الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 14، ص 257.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 20، ص 212.

3- الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 14، ص 254.

4- الكليني، الكافي، ج 5، ص 9.

5- الكليني، الكافي، كتاب النكاح باب العفة، ج 2، ص 79، ح 1.

6- المجلسي، بحار الأنوار، ج100، ص146.

لهم عمل: عبد آبق، وامرأة زوجها عليها ساخط، والمسبل إزاره خيلاء»[1]. فمن حقّ الزوج على زوجته أن تتجنّب كلّ شيء يؤدّي إلى سخطه وإثارته وغضبه، وتنكّد عيشته، واستقراره.

**سابعًا: واجبات الزوجين المشتركة**

1. المداراة وضبط النّفس: يؤدّي اختلاف المشارب والأذواق بين الزوجين إلى ظهور الاختلافات والنّزاعات بينهما، والَّتي غالبًا ما ترتبط بنظرة كُلّ منهما إلى مصلحة الأسرة. ولذا؛ يُوصي الإسلام في حالة بروز نزاع عائليٍّ أن يلجأ أحد الطرفين إلى الصمت، وأن يغضّ الطرف عن أخطاء الطّرف الآخر، وأن يتعامل معه بما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ. فإنَّ الحياة الزَّوجِيَّة ترافقها المشاكل، ولا يمكن تحمّلها إلّا بالصّبر، وضبط النّفس، والتّسامح، وغضّ الطّرف قليلًا عن أخطاء الطرف الآخر وسلوكه. وقد حثّت الروايات الشريفة كثيرًا على الصبر والتَّحمُّل عند وقوع الخلاف كما ذكرنا سابقًا.

2. حفظ الأسرار بينهما: إنّ حفظ الأسرار بين الزوجين من الأمور المُهمّة في استمرار الحياة الزَّوجِيَّة، فيجب على كلّ واحد منهما أن يحفظ كرامة الآخر في أسراره، وخصوصًا في ما يرجع إلى الجانب الجنسيّ، وقد تحدّثت الروايات على لزوم كتمان ذلك بينهما. فإنّ أكثر النّاس اطّلاعًا على أسرار الرجل هو زوجته والعكس صحيح خصوصًا تلك الَّتي ترجع إلى الجوانب الشَّخصيَّة. وحينئذ يجب عليهما المحافظة على أسرار بعضهما بعضًا، وعدم إفشائها لأيٍّ كان.

3. الرفق بالطّرف الآخر: قد ينشب النّزاع بين الزوجين؛ بسبب المضايقات المستمرّة؛ كإقدام الرجل ـ مثلًا ـ على فتح أبواب منزله للأصدقاء والمعارف دون مُراعاة حال الزوجة وظروفها النفسيَّة والصحّيَّة، مُحمّلًا المرأة أعباء خدمتهم وضيافتهم، أو بالعكس تقوم المرأة بدعوة أهلها وأقربائها باستمرار؛ ما يؤدّي إلى إرهاق الرجل ماديًّا ونفسيًّا. لذا، ينبغي أن يراعي كلّ منهما حال الطرف الآخر ويشعر معه، فلا يُقدِم على ما يُسبِّب له الأذيَّة والضّرر على كلا المستويَيْن: المادّيّ، والمعنويّ؛ بل ينبغي أخذ إمكانات كلّ طرف في الحِسْبان، واحترام الزوجين كلّ منهما لمشاعر الآخر. فعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «ما زوي

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، كتاب النكاح، باب 80 من أبواب مقدّمات النكاح.

الرفـق عـن أهـل بيـت إلّا زوي عنهـم الخيـر»[1].

**ثامنًا: ترابط الأخلاق والعدالة في الحياة الزَّوجِيَّة والأُسَرِيَّة**

قضيَّـة العدالـة مرتبطـة بالإنسـان بِوصفِـه الموجـود الوحيـد العاقـل والباحـث عـن الحقيقـة، وهـو ـ في الوقـت نفسـه ـ موجـود حرّ ومختـار، وميّـال إلى اكتسـاب المعرفـة وتطبيقهـا عمليًـا. هـذا مـن جهـة، ومـن جهـة أُخـرى كانـت فطرتـه الإنسـانيَّة تدفعـه، بـوازع داخلـيّ، إلـى حُـبّ العدالـة. لـذا؛ كان علـى الـدوام يشـعر بالنفـور مـن الظلـم والجـور؛ بينمـا كان ينظـر إلـى العدالـة كحبيـب يعشـقه ويهـواه.

العدالـة والأخـلاق فضيلتـان يتوقّـف عليهمـا تحـوّل أنفـس الأفـراد والمجتمعـات. هاتـان الفضيلتـان تخلقـان فـي ذات الإنسـان عقـلًا واسـتقامةً واعتـدالًا، وفـي نفـوس المجتمعـات الاسـتقامة، والمسـاواة، والاعتـدال، والحرِّيَّـة. وانعـدام العدالـة في المجتمع يُفضـي إلـى التمييـز، والظلـم، والفسـاد واضمحـلال الوفـاق العـام. كمـا نسـتخلص مـن اسـتقراء النُّصُـوص المُقدّسـة، أنّ الانبيـاء عليهم السلام جـاؤوا لبسـط القسـط والعدالـة فـي المجتمـع، وكان الهـدف مـن رسـالاتهم أن يقـوم النّـاس بالقسـط ويلتزمـوا فضائـل الأخـلاق فـي سـلوكهم الفـرديّ والاجتماعـيّ.

العدالـة علـى حـدّ تعبيـر الإمـام الخمينـي قدس سره «مـن أمّهـات الفضائـل الأخلاقِيَّـة؛ بـل إنّ العدالـة المُطلقـة حاويـة لجميـع الفضائـل الباطنيَّـة والظّاهريَّـة، والرُّوحيَّـة والقلبيَّـة، والنّفسـيَّة، والجسـميَّة؛ لأنّ العـدل المطلـق هو الاسـتقامة بكل معانيهـا»[2]، و«إنّ الاعتدال الحقيقـيّ لا يتيسّـر إلّا للإنسـان الكامـل»[3]. وفـي المصـدر نفسـه ذكـر أنّـه «مـن الفضائـل الإنسـانيَّة العظمـى»، و«بـه تحقّـق غايـة الكمـال الإنسـانيّ، ومنتهـى السّـير الكمالـيّ؛ بـل هـو تحقُّـق هـذا الكمـال بعينـه فـي أحـد معانيـه وهـو مـن مهمّـات الأمـور الَّتِـي تـؤدّي الغفلـة عنهـا إلـى خسـرانٍ عظيـم، وضـررٍ جسـيم، وشـقاءٍ لا يمكـن جبـره»[4]. جـاء فـي

1- الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج2، ص119.

2- روح الله الموسـويّ الخمينـيّ، جنـود العقـل والجهـل، دار المحجـة البيضـاء، بيـروت، 2003 م، ترجمـة مؤسّسـة أم القـرى، ص 143.

3- المصدر نفسه، ص 149.

4- المصدر نفسه.

الأحاديث أنّ «العدل أحلى من العسل»[1]، وأنّه «من دعائم الإيمان»[2]، وأنّه «أعمّ الأخلاق نفعًا»[3].

جاء في الحديث: «غاية العدل أن يعدل المرء في نفسه»[4]، وهذا الحديث يفتح بابًا واسعًا للبحث عن علاقة العدالة الفرديَّة بالاجتِماعِيَّة. لكن ما يمكن أن يُقال بما يتناسب مع هذه الأوراق: إنّ سعي الفرد إلى إقامة العدالة الاجتِماعِيَّة هو أفضل وأسرع طريق لتحقيق العدالة في النّفس؛ على قاعدة: «وأمر بالمعروف تكن من أهله»[5].

## خاتمة

تأسيسًا على ما ذكرناه من أصولٍ تربويَّة واجتماعيَّة ـ عامَّة وخاصَّة ـ كفيلة ببناء مجتمع مُتكافل، يحفظ حقوق بعضه بعضًا، ويحرص على مُمارستها والعيش في ظلّها، والتربية عليها؛ لا بُدّ من الالتفات إلى أنّ تلك التّشريعات الإسلاميَّة الاجتِماعِيَّة تتّسع لتشمل العلاقات الإنسانِيَّة بين بني البشر؛ لأنّ الرَّوابط الَّتي تجمع بين النّاس كثيرة، فمن رابطة الدم، إلى رابطة الفكرة والمبدأ، ورابطة العمل والوظيفة، ورابطة الصّداقة والصّحبة، ورابطة الجنس والعرق، والرابطة التجاريَّة والاقتصاديَّة، ورابطة العقيدة الَّتي تُعدّ من أقوى الرَّوابط وأمتنها. ولكن قوّة رابطة العقيدة، لا تعني أنَّ أدب التّعامل مع الآخرين لا يدور إلّا في نطاقها، ولا يشمل التعامل مع أصحاب العقائد الأخرى من غير المسلمين؛ بل إنَّ أدب التعامل يتّسع ليشمل الإنسانِيَّة كلّها.

فالتعامل الحسن؛ هو سلوك الجوارح والعلاقة الظّاهريَّة ويكون مع كل البشر. أمَّا الولاء فهو بين المسلمين خاصّة. ولعلّ ما ورد في سورة الممتحنة، هو من أوضح الآيات الَّتي تميّز بين الولاء وبين البرّ وحُسن التعامل، يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

1- الكليني، الكافي، ج1، ص 542.

2- المصدر نفسه، ج2، ص 50.

3- الآمدي، غرر الحكم، ص 376.

4- المحقّق النّوريّ، مستدرك الوسائل، ج11، ص 318.

5- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ص 391.

قَتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1].

فقضيَّة التَّعامل مع الآخرين هي قضيَّة بالغة الأهمِّيَّة والخطورة، وقد جعل الإسلام الالتزام بالدين في قسم كبيرٍ منه، مُتوقّفٌ على الأدب وحُسن المعاملة. ومن منطلق تلك الأهمِّيَّة، جاء القرآن الكريم ليضع لنا المناهج القويمة والأُسُس السَّليمة للتّعامل مع الآخرين بوصفِه موضوعًا أساسًا من موضوعات هذا الدين.

إذ كان الأدب يتبع في خُصُوصيّته الغاية المطلوبة في الحياة فالأدب الإلهيّ الَّذِي أدَّب الله ـ سبحانه ـ به أنبياءه ورسله عليهم السلام هو الهيئة الحسنة في الأعمال الدينيَّة الَّتِي تُحاكي غرض الدِّين وغايته، وهو العبوديَّة على اختلاف الأديان الحقّة بحسب كثرة موادها وقلّتها، وبحسب مراتبها في الكمال والرُّقيّ.

لمّا كان من شأن الإسلام التعرُّض لجميع جهات الحياة الإنسانِيَّة؛ بحيث لا يشذُّ عنه شيء من شؤونها يسير، أو خطير دقيق، أو جليل فلذلك وسع الحياة أدبًا، ورسم في كل عمل هيئة حسنة تحاكي غايته.

وليس له غاية عامّة إلّا توحيد الله ـ سبحانه ـ في مرحلتي الاعتقاد والعمل جميعًا؛ أي أن يعتقد الإنسان أنّ له إلهًا هو الَّذِي منه بدأ كل شيء وإليه يعود كلّ شيء، له الأسماء الحسنى والأمثال العُليا، ثمّ يجري في الحياة ويعيش بأعمال تحاكي بنفسها عبوديّته وعبوديَّة كل شيء عنده لله الحقّ عزّ اسمه. وبذلك؛ يسري التوحيد في باطنه وظاهره، وتظهر العبوديَّة المحضة من أقواله وأفعاله، وسائر جهات وجوده ظهورًا لا ستر عليه، ولا حجاب يغطيه. فالأدب الإلهيّ ـ أو أدب النُّبُوَّة ـ هي هيئة التوحيد في الفعل[2].

يقول الإمام علي عليه السلام: «الآداب حُللٌ مجدّدة»[3]. ومعنى كلامه عليه السلام أن الآداب حُللٌ مُجدّدة «أي لا يبلى؛ بل يزداد بكثرة التجارب والممارسة كلّ وقت جدّة. وعنى بالآداب ههنا آداب الشرع الَّتي هي مكارم الاخلاق»[4].

---

1- [ الآيتان: 8 - 9، المُمتحنة/60].

2- الطباطبائي، تفسير الميزان، كلام في معنى الأدب، وهو بحث تفصيليّ حول الأدب الَّذِي أدّب الله به أنبياءه ورسله عليهم السلام، ويقع في عدّة فصول، ج6، ص -256 297.

3- علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص 40.

4- علي بن زيد البيهقي، معارج نهج البلاغة، ص 399.

والمُحصّل من كلامه كما أنّ الشخص يتزيّن بالحلل كذلك يتزيّن بالآداب مثل العلم، وما يتبعه من حسن المجاورة، والمعاشرة، وأمثالها.

فحسن الخلق والأدب مع الآخرين مهما كان الطرف الآخر اشتركت معه في الدين، أو المذهب، أو الإنسانِيَّة، أو لم تشترك، دليل على رزانة العقل وبُعْد النَّظر، وأمّا إذا كان عكس ذلك فهو دليل على الحمق، ونقصان العقل .

وعليه؛ فإنّنا نوجّه دعوة صادقة إلى المؤسّسات التَّعليميَّة الدينيَّة، والأكاديميَّة، والباحثين المُتخصّصين للقراءة الأصيلة لتلك الأصول الاجتِماعِيَّة والتّربويَّة، والتعاون في تسييلها في المناهج والبرامج التَّعليميَّة والتربويَّة والإعلاميَّة، ...؛ لنتمكّن معًا من بناء جيلٍ جديد، وتربيته على أصول التّكافل، والتّعاون، والمحبّة، والمودّة، والإيثار، والتَّضحية، ... وفهم الاختلاف وترشيده، لنبني مجتمعًا حضاريًّا يشعر بالعزّة، والكرامة، والتّرابط الأخويّ، وفقًا للمفهوم القرآنيّ.

فإنّ الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، ولا يكتفي بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضًا فحسب؛ بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم؛ بل وأرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم وظنّهم السيّئ أيضًا... وأن يحسّ كلّ منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الاتّهامات في عقيدته وأفكاره. وذلك الأمن لا يمكن تحقّقه إلّا في مجتمعٍ رساليٍّ خلوقٍ مؤمن.